obeikandl.com

البابُ الثاني عشرَ

فيمن خاطر في الله في المشافهة، ولم يدفع بالمداهنة

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾(1).

وقالَ رسول الله ﷺ: «إذا هابت أمتي أن تقول للظالم: أنت ظالم فقد تُوُدِّعَ منهم».

وقال: ودخل عبدُالرحمن بن غنمٍ على الحجَّاج، فقال: لا تسرف في القتل، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾﴾(2)، قال له الحجاجُ: لأسقينَّ الأرضَ من دمِك، قال: ما في بطنها أكثر مما على ظهرها، قال: لأذيقنَّكَ العذابَ الأكبرَ، قال: لو علمتُ يا حجاجُ أنَّك تقدرُ على ذلك لعبدتُكَ من دون الله.

وتهدَّدَ عمرُ بن يزيد محمدَ بنَ واسعٍ، فقال محمد: نكالُ الآخرةِ أشدُّ من نكالِ الدنيا، والظالمُ أحقُّ بالضربِ من المظلومِ.

وقال الحجاجُ لجامعٍ المحازمي: لقد هممتُ أنْ أقلعَ لسانَك وأضربَ به وجهَك، فقال جامع: إنّ صدقنا أغضبناك وإن كذبنا أغضبنا الله، فغضبُ الأميرِ أهونُ مِنْ غضبِ اللهِ.

(1) الحجر: (94).
(2) الإسراء: (33).

قال وتكلَّم شقيقٌ ببلخ في العلماء والأمراء، حتى رُفع خبره إلى الأمير، فدعاه والعلماءُ مجتمعون حولَه، فقال له الأمير: ما حِرْفَتُك؟ قال خادمٌ، فقال خادمُ مَنْ؟ قال: خادمُ مُقلِّبِ القلوب، قال: مالكَ والوقيعةَ في العلماء الأمراء؟ قال إن النبيّ ﷺ قال: «العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ»، و«السلطانُ ظلُّ اللهِ في الأرضِ» فالوارثُ يكون بالاقتداءِ، والظلُّ ما يُرَوِّحُ النفسَ إذا أَوَتْ إليه، فلو دخَلَ علينا رسول الله ﷺ، أيُّنا كان يستحي منه أنَا، أو أنتَ، أو هؤلاء؟ قال: فاذهبْ فإني أشهدُ أنك خَادمُ مقلِّبِ القلوبِ.

وقال طاوس اليماني: بينا أنا أطوفُ بمكةَ والحَجَّاج أمامي، إذ بَصُرَ برجل كاليماني، فقال لبعض غلمانه: احفظ هذا، فإذا قَضى طوافه فأتني به، فقال لهُ: أجِبِ الأميرَ، حتى وقف بين يديه، وقام إليه رجل آخر، حتى صار بين اثنين، فقال له الحجاج: ممَّن الرجلُ؟ فقالَ من أهلِ اليمنِ، قال: كيف خَلَّفتَ أخي محمدَ بنَ يوسفَ؟ قال: طويلاً، صحيحاً، عريضاً، جسيماً، سالماً، شجاعاً، قال: لم أسألك عن هذا، إنما سألتك عن رَسْمِه وسِيرته، قال: تركته أظلمَ الظالمين، وأفسقَ الفاسقين، وشرَّ الأشرار، قال: فأطرقَ الحجاجُ ساعةً، ثم رفع رأسه، فقال: أما علمتَ أنه أخي؟ فقال: أما علمتَ أنَّ الله ربي، أترى أخاك بكَ أعزَّ مني بالله؟ قال فبكى الحجاجُ بكاءً شديداً، وانتزع الرجلُ يَدَه من أيدي الرجلين، فذهبَ، فما تبعه أحد، ولا قيل له شيءٌ، قال طاوس: فما سُررت بشيءٍ قطُّ مثل سروري بذلك.

قال: ودخل حاتمٌ على أميرِ المؤمنين؛ أبي جعفر فقيل له: هذا مُذَكِّر خراسان، وهذا رجلٌ زاهد، قال حاتم: يا أميرَ المؤمنين، لو بقيتَ عطشاناً لم تجِدِ الماءَ إلا بإخراجِ نصفِ مُلكِكَ، ما كنت تفعل؟ قال: أبذلُه، قال: لو حُبس البول بعدما شربت، ولا تجدُ السبيلَ إلا بإخراجِ النصفِ الباقي،

كيـف تصنع؟ قال: أبذله، قال حاتم: لا يغُرنَّك مُلْـكٌ؛ ثمنُهُ قطرةُ بولٍ؛ ولا شربة ماء كفاكَ ثمنُها مقدارها.

الحكاية

خرجَ عبدُ اللهِ بن منيرٍ حاجاً إلى مكةَ، في السنةِ التي خرج هارونُ الرشيدُ يطوفُ على بَغْلةٍ، وبين يديه طَرَّادٌ، فقال عبدُ اللهِ بن منيرٍ: ما هذا؟ لم تطرُدُ خلقَ اللهِ من بيتِ اللهِ؟ وهل رأيتَ أحداً يطوفُ على البغلةِ؟ فقالَ: أرسلَ اللهُ خيراً منكَ إلى شرٍّ مني، وهو موسى صلوات الله عليه، أرسله إلى فرعونَ، وقال لهُ ولأخيه: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾[1] ثمَّ قالَ: خذوه، فلمّا خرجَ مِن الطواف أرادَ قتله، فقيل له: لا ينبغي لكَ قتلُ رجلٍ صالح، فقال هارون: اذهبوا به إلى الإسطبل، حتى يحفظَ بغلتي المجنونة، وكانت تلك بغلة لا تُطيع أحداً، وكانت جموحاً عضوضاً، وكان غرضه أن تَقْتُله، فلما ذهبوا به صارتِ البغلةُ له مطيعةً، تمشي خلفه من غير مقود، فأخبر هارونُ بذلك، فقال أدخلوه بيتاً، وسدُّوا بابه، ليموت جوعاً، ففعل به، فلمّا كانَ منَ الغدِ دخلَ غلمانُ هارونَ البستانَ، فرأوه جالساً مع رجل يُحدِّث، فأُخبِرَ هارونُ ذلك، قال: فانظروا، فنظروا فإذا هو قد ذهب الذي كان معه، فأُتي به إليه، فقال له هارون: من أخرجك من حبسي؟ قال: الذي حبسني فيه!! قال: من الذي كان معك؟ قال: أخي الخضرُ عليه السلام! قال: فأمر هارون ليؤتى به السوقَ، وأمر منادياً حتى يطوف به في الأسواق ينادي: أن الرشَيد أرادَ أن يذلَّ من أعزه الله، فلم يستطعْ، قال: واعلموا أن من أعزَّه الله لا يستطيعُ، أحدٌ أن يذله[2].

---

(1) طه: الآية (44).

(2) لو أخلاها واضع القصة من (أخي الخضر) ربما تسوغ!! وبعيد أن يكون الرشيد بالصفة التي تصورها القصة.